الأستاذة: سميرة بوجرة

المحاضرة رقم 03

أقسام علم البلاغة

1.علم البيان لغة واصطلاحا

2. علم المعاني: الماهية والنشأة وأهم أعلامه

3. علم البديع: الماهية والنشأة وأهم أعلامه

يطلق اسم أقسام علم البلاغة في اللغة العربية على علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، عليم البيان، وعلم البديع. ولا شك أن البلاغة ذات علاقة وثيقة بعلوم متن اللغة والنحو والصرف فتلك علوم عربية أوضح ما تكون للمتأمل، ولكن علوم البلاغة إنما اختصت بجانب آخر وهو جانب الاحتراز من الخطأ في تأدية المعنى المراد، ومن هنا نشأ علم المعاني، وكذلك الاحتراز من التعقيد المعنوي، ومن هنا نشأ علم البيان، وإلى المحسنات اللفظية ومن هنا نشأ علم البديع.

1.علم البيان لغة واصطلاحا:

أ. لغة: كلمة البيان في معناها اللغوي لا تخرج عن معنى الإيضاح والكشف وإظهار المقصود من الكلام بعبارات بليغة، وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: **(هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138)) سورة آل عمران الآية 138. ويقول تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)﴾ سورة الرحمان الآية 7.** وجاء في المعجم أن البيان الكشف والإيضاح والإظهار بعد الخفاء، فتقول العرب فلان أَبْيَنُ من فلان، أي أوضح كلاما. إذن، البيان لغةً هو: الإفصاح عمّا في النفس وإظهار المعنى وإيضاحه.

ب اصطلاحا: عرف السكاكي علم البيان بقوله: "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرقٍ مختلفة في وضوح الدلالة". وعرف ابن رشيق علم البيان بأنه "العلم ما به عُرِف تأدية المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه". ويحصر ابن رشيق هذه الطرق في ثلاثة: التشبيه، والمجاز، والكناية. هدفه من ذلك هو بيان الأثر الذي تحدثه هذه الأساليب التعبيرية في الشعر.

نستخلص من التعريفين أن علم البيان يُعنى بالتعبير عن المعنى الواحد بطرق متعددة، بحيث تكون هذه الطرق متفاوتة في درجة الوضوح أو الجمال، وذلك من خلال أدوات بيانية مخصوصة مثل: التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز المرسل. مثل قولنا: رأيت أسدًا في المعركة: المعنى الحقيقي للأسد: الحيوان المفترس، لكن في البيان يمكن أن يُراد به الرجل الشجاع (وهذه استعارة).

نستنتج أن ثمة طرائق كثيرة للتعبير في اللغة العربية، فهناك تعبير مباشر، وهناك تعبير بلاغي فنّي، وهو مادة علم البيان.

ج. وظيفة علم البيان: معروف أن العرب لم يقفوا في تعبيرهم عن مقاصدهم عند مجرد دلالة اللفظ الوضعية لأن ذلك يضيق عليهم مجال التعبير ولا يكفي في توضيح ما يدور في نفوسهم من مشاعر، بل عمدوا إلى توسيع دائرة التعبير فاستخدموا التشبيه والاستعارة، والكناية والتعريض لتوضيح ما دق وخفي من المعاني، واستخدموا في التصوير الذي يقدمونه صورا متعددة للتعبير عن المعنى الواحد.

وقد أدى هذا التوسع في طرق التعبير إلى تلوين الكلام باللون الذي يلائم حال كل مخاطب مع تقريب المعاني بالصور المشابهة لها، أو الاستدلال على المعنى بأدوات البيان، ليكون للكلام قوة التأثير والإقناع، مثال: إذا أردنا التعبير عن كرم محمد يمكن أن نستخدم صورا شتى للبيان، فنقول: محمد كالبحر في العطاء، أو تقول: رأيت بحرا يوزع عطاياه، أو نقول: كم لمحمد من أيادٍ .....

ويبحث علم البيان في التشبيه والمجاز بأنواع، والاستعارة والكناية.

2. علم المعاني: الماهية والنشأة وأهم أعلامه

أ. مفهومه: هو علم به أحوال اللفظ العربي التي بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال حتى يكون وفق الغرض الذي سيق له، فيه نحترز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد فنعرف السبب الذي يؤدي إلى التقديم والتأخير، والحذف والذكر، الإيجاز حينا والإطناب آخر، الفصل والوصل إلى غير ذلك.

ويعرف السكاكي علم المعاني بقوله: «علم المعاني هو تتبُّع خواصّ تراكيب الكلام في إفادة المعنى، وما يتصل بها من الاستحسان، ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال.»

ومباحث علم المعاني ثمانية، هي: أحوال الإسناد الخبري، أحوال المسند إليه، أحوال المسند، أحوال متعلقات الفعل، القصر. الإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز والإطناب والمساواة.

ب-نشأته وأعلامه: كانت علوم البلاغة علما واحدا تناوله العلماء قديما في مصنفاتهم دون أن يميزوا بينها. وشيئا فشيئا أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحون بها منحى التخصص والاستقلال، كما أخذت مسائل كل فن بلاغيّ تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى. وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، ووضع نظرية علم المعاني في كتابه «دلائل الإعجاز» ونظرية علم البيان في كتابه «أسرار البلاغة».

لم يحدث بعده تغيير يذكر في هذين العلمين، لأنه استطاع أن يستنبط من ملاحظات البلاغيين قبله كل القواعد البلاغية فيهما. وقد فتن البلاغيون بعمله فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده لا يتجاوزونه إلى عمق أو ابتكار، كأنما البحث في البلاغة قد انتهى بعبد القاهر الجرجاني.

كانت جهود البلاغيين من بعده انحصرت في جمع قواعد علوم البلاغة التي وضعها، وفي ترتيب أبوابها، واختصارها. إلى أن وظهر عالم ضرب بسهم وافر في الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والاعتزال واللغة والبلاغة، وكان له تأثير خطير على البلاغة العربية. ذلك العالم هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي صاحب كتاب «مفتاح العلوم» الذي جعله أربعة أقسام: قسما في علم الصرف، وقسما في علم النحو، وقسما في علوم البلاغة، وقسما في علم الشعر.

سارت دراسة البلاغة قبل السكاكي على منهاج من عدم الفصل بين فنونها، لما في ذلك من خدمة الأدب وإمداده بأسباب القوة والجمال والوضوح. في هذا المنهاج لم تكن محاولة الاهتداء إلى العناصر الجمالية في البيان العربي غاية في حد ذاتها بمقدار ما كانت وسيلة لشحذ الملكات، وتنمية الذوق، وإرهاف الحس، وتكوين البلغاء والنقاد. وعلى العكس من ذلك كان منهاج السكاكي في دراسة البلاغة، فقد أصّل منهاجه فيها على أسس منطقية حولت البلاغة من فن

إلى علم له قواعده ونظرياته. ومن هنا كانت خطورة منهاج السكاكي الذي يعد في تاريخ البلاغة بداية طور الجمود في دراستها.

وشهرة السكاكي في البلاغة مصدرها القسم الثالث من كتابه «مفتاح العلوم»، فقد أفرد هذا القسم من كتابه للكلام عن علمي المعاني والبيان ولواحقهما من البلاغة والفصاحة والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي.

وقد عرّف السكاكي علم المعاني بقوله: «إنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره». وهذا التعريف وحده نموذج لتأليف السكاكي الذي أفرغه في أسلوب علمي منطقي.

ويمكن حصر موضوعات علم المعاني التي وردت في القسم الثالث من كتاب «المفتاح» للسكاكي على النحو التالي: - الخبر والطلب. - الإسناد الخبري باختلاف السامع من حيث خلو الذهن، أو الشك، أو الإنكار. - الإسناد، وبيان أحوال المسند إليه والمسند، من حيث: الحذف والذكر، والتنكير والتعريف، والتقديم والتأخير، والتخصيص والمقتضيات البلاغية لذلك. - الفعل ومتعلقاته. - الفصل والوصل. - الإيجاز والإطناب، وبيان كيف أنهما نسبيان٧ - القصر، وأنواعه، وطرقه. - الطلب، ويندرج تحته:أ- مقدمة عن الطلب مستمدة من كلام المناطقة عن التصور والتصديق وما يحصل في الذهن، وما يحصل في الخارج.ب- أنواع الطلب الخمسة: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، وأدوات كل نوع منها، ووظائفها.ج- الأغراض البلاغية أو المعاني الإضافية التي يخرج الطلب عن معانيه الأصلية من أجل الدلالة عليها، وذلك مثل: التعجب، والإنكار، والاستبطاء، والنفي.

ج. أثر علم المعاني في بلاغة الكلام

ويمكن القول من البدء أن الأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القول يتولد في الواقع من أمرين اثنين:

1.بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، والمعاني المستفادة من الكلام ضمنا بمعونة القرائن وتوضيحا للأمر الأول نقول: إن مباحث علم المعاني من شأنها أن تبين لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، كما ترينا أن القول لا يكون بليغا كيفما كانت صورته حتى يلائم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع الذي ألقي عليه.

كذلك من أصول علم المعاني أن يخاطب كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من اللغة والأدب، فلا يجوز أن يخاطب العامي بما ينبغي أن يخاطب به الأديب. فعكس الأمر هنا بلا داع فيه إخلال بما تتطلبه بلاغة المعنى، لانعدام الملاءمة بين الكلام ومقامه. ولعل فيما رواه صاحب الأغاني من حديث أحمد بن خلاد عن أبيه ما يوضح بالمثال هذا الأصل القائل بأن البلاغة هي في مخاطبة كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من اللغة والأدب: «قال أحمد بن خلاد: حدثني أبي قال: قلت لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت! قال: وما ذاك؟ قال: قلت: بينما تقول شعرا يثير النقع، وتخلع به القلوب، مثل قولك: إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ... ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول: ربابة ربة البيت ... تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت!

قال بشار: لكلّ وجه وموضع، فالقول الأول جدّ، وهذا قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع لي البيض، فهذا عندها من قولي أحسن من «قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل» عندك» .

وتتمثل مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضا فيما يتصرف فيه القائل من إيجاز وإطناب، حيث لكل من الإيجاز والإطناب مقاماته التي تقتضيها حال السامع ومواطن القول. فالذكي الذي تكفيه اللمحة أو الإشارة يحسن له الإيجاز، والغبي أو المكابر يجمل عند خطابه الإطناب في القول. فالبلاغة تقتضي استخدام أسلوب الإيجاز مع الذكي اعتمادا على سرعة فهمه وقدرته على

استيعاب ما تحمله الألفاظ القليلة من المعاني الكثيرة، وكذلك الشأن بالنسبة لأسلوب الإطناب، فبلاغته تستلزم الإسهاب بالشرح والإيضاح، إما طلبا لتمكين المخاطب من الفهم إن كان غبيا، وإما لتنزيله منزلة قصار العقول إن كان قد تجاوز الحد في المكابرة والعناد.

2. أما الأمر الثاني الذي يبحث فيه علم المعاني فهو دراسة ما يستفاد من الكلام ضمنا بمعونة القرائن. فالكلام يفيد بأصل وضعه معنى نطلق عليه المعنى الحقيقي أو الأصلي، ولكنه قد يخرج أحيانا عن المعنى الذي وضع له أصلا ليؤدي إلينا معنى جديدا يفهم من السياق وترشد إليه الحال التي قيل فيها. فالغرض مثلا من إلقاء الخبر إلى المخاطب في أصل الوضع هو، إمّا إفادته الحكم الذي تضمنه الخبر، وإمّا إفادته أن المتكلم عالم بالحكم. كقولك: «كان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئا»، وكقولك: «لقد كنت في مطار بيروت أمس».ففي المثال الأول تريد إفادة السامع بما لم يكن يعرفه عن عمر بن عبد العزيز من الفقه والزهد في مال المسلمين. وفي المثال الثاني لا تريد إفادة السامع مضمون الكلام لأن ذلك معلوم له قبل أن تعلمه أنت، فالسامع في هذه الحال لم يستفد علما بالخبر نفسه، وإنما استفاد أنك عالم به.

ذلك هو الغرض من إلقاء الخبر في أصل الوضع، إما إفادة المخاطب بالحكم، وإما إفادته أن المتكلم عالم به. ولكن الخبر قد يخرج عن هذين المعنيين ليؤدي إلينا معنى جديدا يفهم من السياق. تأمل مثلا قول أبي فراس الحمداني:

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي ... مأوى الكرام ومنزل الأضياف

فالشاعر لا يقصد المعنى الذي يدل عليه الخبر، إنما يقصد إلى معنى آخر يستشفه اللبيب ويلمحه من سياق الكلام، هو في بيت أبي فراس الفخر بمكارمه الكثيرة وكرمه.

3. علم البديع:

أ. مفهومه ونشأته:

مصطلح "البديع"، إذ ارتبط البديع بالحداثة الشّعرية العباسية، فالبديع لغة: من بَدَعَ الشيء بَدَعَهُ بَدْعاً وابْتَدَعَهُ أنشأه وبدأه، والبِدْعُ: الشيء يكون أولاً، والبِدْعَةُ كل محدثة، والمُبْتَدَعُ: الذي يأتي أمراً على شبه لم يكن ابتدأت إياه ولم يسبقه إليه أحد، والبَدِيْعُ: المحدث العجيب والخلق

والاختراع، لذلك البديع من أسماء الله تعالى لأنه مبدع كل شيء. يقول تعالى في كتابه: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (البقرة 117).

ثم صار اسم البديع يطلق على الفرع الثالث من فروع البلاغة العربية، وفي القرون المتقدمة لم يكن البديع علما مستقلا؛ إذ كانت العرب تطلق على العلم أحيانا اسما من أسماء فروعه، كما فعل الجاحظ حينما وصف الاستعارة بأنّها: البديع حينما علّق على بيت من الشعر يقول فيه صاحبه:

هم ساعد الدهر الذي يتقى به ... وما خير كف لا تنوء بساعد

قال الجاحظ: قوله: "هم ساعد الدهر" إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع. وعندما جاء ابن المعتز جعل البديع خمسة أنواع، ثم مازال العدد بازدياد حتى وصل عند قدامة بن جعفر إلى سبعة وعشرين نوعا، وبلغ عند المتأخرين مئة وخمسين نوعا.

ب. أعلامه: البديع وجه من أوجه تحسين الكلام وتزيينه من خلال استخدام المحسّنات البديعية اللفظية والمعنوية، دون أن يغيّر ذلك من أصل المعنى أو يضعف محتوى الكلام. وأعلام البديع هم العلماء الذين أسّسوا له، وطوّروه، ودوّنوا قواعده في كتبهم. ويعدّ علم البديع من العلوم التي نشأت تدريجيًا، لذلك تعدّد أعلامه عبر العصور.

ونجد المؤسسون، وهم هؤلاء وضعوا اللبنات الأولى لعلمي البيان والبديع الجاحظ في كتابه البيان والتبيين من أوائل مصادر البلاغة. ثم ابن المعتز، في كتابه الشهير «البديع» جمع فيه المحسّنات البديعية الموجودة في الشعر العربي. كذلك قدامة بن جعفرفي كتابه نقد الشعر توسّع في دراسة البديع وربطه بالنقد الأدبي.

أعلام مرحلة التقعيد والتطوير، هم هؤلاء العلماء نظموا علم البديع وجعلوه جزءًا من البلاغة العربية أبرزهم عبد القاهر الجرجاني، رغم تركيزه على المعاني والبيان، فقد ساهم في ضبط الأساليب البديعية ضمن نظريته المشهورة في النظم في كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. كذلك ابن رشيق القيرواني في كتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» قدّم مادة ثرية

في المحسّنات البديعية. ثم السكاكي من أهم واضعي البلاغة بصورتها المتقدمة في كتابه «مفتاح العلوم» صار مرجعًا لكثير من الدارسين بعده.

أما أعلام البلاغة المتأخرين الذين جمعوا خلاصة البلاغة في كتب شاملة: الخطيب لقزويني في كتابه «الإيضاح» و«التلخيص» وضع خلاصة لعلم البلاغة، بما فيه البديع.

ج. أثره على الكلام:

من فوائد علم البديع ، فيقول التهاوني في كتاب (كشاف اصطلاحات الفنون): "وأما منفعته فإظهار رونق الكلام، حتى يلج الآذان بغير إذن، ويتعلق بالقلب من غي كد، وإنما دونوا هذا العلم لأن الأصل وإن كان الحسن الذاتي، وكان المعاني والبيان مما لا يكفي في تحصيله، لكنهم اعتنوا بشان الحسن العرضي أيضا، لأن الحسناء إذا عريت عن المزينات، ربما يذهل بعض القاصرين عن تتبع محاسنها، فيفوت التمتع بها".

وعموما تكمن أهمية علم البديع في: يجعل الكلام أكثر تأثيرًا وإمتاعًا، ويساعد في إيصال المعنى بشكل بليغ وجميل، ويكشف جمال النصوص الأدبية والشعرية.